مذنبون حتى تثبت براءتهم !
مذنبون حتى تثبت براءتنا ! !

نوال السباعي

سنوات ضوئية تفصل ما بين الرقمين !! هكذا قالت الصحافة الإسبانية ، فبين الـ 233000 – مائتين وثلاثة وثلاثون ألف – عاماً من السجن التي طالب بها المدّعي العام لمعاقبة المتهمين بتشكيل خلية من خلايا ما يسمى بـ " القاعـدة " في مدريد حتى يكونوا عبرة لمن اعتبر – كما قال – ، وبين الأحكام التي صدرت يوم النطق بالحكم والتي لم تتجاوز بمجملها 167 عاماً ؛ بين الـرقمين شـوط كـبير ضخم ، ومصير أربعة وعشرين رجلاً وأسرهم ، وانهيار مصداقية دولة ديمقراطيـة عضو في الاتحاد الأوربي ، وقبل ذلك وبعده انكشاف كل الأبعاد الحقيقيـة لمـا يسمى بالحرب على الإرهاب في هذا العالم الكسيح المجنون الذي نعيش .

سيبقى يوم الإثنين السادس والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر عام 2005م يوماً مشهوداً في تاريخ العدالة في عالم القرن الواحد والعشرين ، اليوم الذي أثبـت فيـه القضاء الإسباني براءة الرجال الأربعة والعشرون الذين كانوا رهن الاحتجـاز منـذ أربعة أعوام على أنهم مذنبون ، أبرياء ، أبرياء من تهمة الانتماء إلى مـا يـسمى " بالقاعدة " ، أبرياء من تهمة الاشتراك في القتل العمدي للآلاف الثلاثة الذين سقطوا ضحايا عمليات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك وواشنطن ، أبرياء من التـآمر ضد الدولة الإسبانية للإضرار بالأرض والإنسان ، أبرياء من كل هذه التهم ، ولكن وعلى الرغم من هذه البراءة فإن هؤلاء الرجال قد حُكموا بأحكام وصفها القاضـي غارثون بأنها مثالية ، ووصفتها الصحافة الإسبانية بأنها قاصرة عن معاقبة هؤلاء القوم ،

ووصفها العرب والمسلمون في إسبانية وأوربا بأنها جريمة إنسانية وتَعد على حقـــوق الأبرياء ، وسابقة خطيرة جداً سوف يكون لها ما بعدها في نفوس أبناءً هؤلاء الرجال وأبناء الجيل الثاني من المسلمين المقيمين في إسبانيا الذين يعيشون هذا الظلم ويعانونه .

الصحفيون اكتظوا بالمئات على أبواب قاعة المحكمة ، المراقبـــون الـــدوليون والدكتور هيثم المناع رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان على رأسهم كـــانوا هناك في محاولة أخيرة لنصرة الحق ، زوجات المعتقلين لم تتجرأ منهن على حضور جلسة النطق بالحكم إلا خمسة ، وبعض أقرباء المتهمين ، لا مكان لموضع قدم في صالة الانتظار ، صمت مهيب كان يلف الصالة المكتظة إلى درجة الاختنـــاق ، شرطة ورجال مخابرات ومحامون وصحفيون ، ومن الجالية العربيـــة المـــسلمة في مدريد بل في إسبانية كلها لم يحضر إلا ثلاثة نساء ورجل واحد .

في صالة الانتظار كان الأستاذ الإعلامي والكاتب الكبير " أحمد الشيخ" ومعـــه وفد من قناة الجزيرة ، استنصحوني فنصحتهم أن يحضروا الجلسة في قاعة المحكمة وليس في صالة الصحافة ، لأن ما يمكن أن تلمسه وتراه وأنت في تلك القاعة لا يمكن لأحد أن يعبر لك عنه لا بالكلمات ولا بالصور . قبل لحظات من حلول موعد فتح بـــاب الصالة بدأت الهمهمات وأصوات بكاء خافت واقتربت مني إحداهن وأسرّت إليّ بأن الأحكام قد سُربت وأن زوجات المعتقلين علمن بأن أزواجهن قد حُكموا بالـــسجن فانخرطن في بكاء صامت أليم دعى بعض المصورين الإسبان إلى البكاء معهم .. خاصة وأنه من الذين كانوا قد حضروا كل جلسات هذه المحاكمة المهزلة من أولها إلى آخرها وهو يعلم ككل من حضرها أن هؤلاء الرجال اعتبروا مذنبين منـــذ اعتقـــالهم ، و لم يعاملوا قط على أنهم أبرياء حتى تثبت إدانتهم كما تقضي الأعراف القضائية الدوليـــة وحقوق الإنسان ، وأن هذه القضية ملفقة مدبرة بين بعض أجهزة الشرطة والمخابرات التي هي على صلة ضليعة بوزارة الداخلية والخارجية الإسبانيتين .

نودي على محاميي المتهمين أولاً ثم على المراقبين الدوليين ولجنة حقوق الإنـــسان ثم سمح للجمهور بالدخول بما يملأ كراسي الصالة وترك البقية وقوفاً في الخارج ، المعتقلون على يمين الصالة في قوقعتهم الزجاجية وجوههم ممتقعة كأنما يرون مصارعهم وأعصابهم

مشدودة وهم يواجهون أقدارهم في هدوء وسكون تامين ، استسلموا لقضاء الله فـيهم بعد أن أعيتهم الحيل واستنفذوا كل الوسائل لإحياء ضمير الديمقراطية وأهلها ، كـانوا يبحثون بعيونهم عن زوجاتهم وأولادهم ، عن صديق كانوا يعرفونه ، عن أخ كان يصلي إلى جانبهم في مسجد مدريد يشدون به عضدهم في هذه المحنة ، ولكن لا أحد! .

جلس الجميع في وجوم وترقب ، بدأ رئيس الصالة بقراءة الحكم الذي قيل أنـه يتجاوز الأربعمائة صفحة ، لكن الرجل لم يلبث أن ذكر ثلاثة أمور رئيـسية علـى غاية من الأهمية ، أولها أن قوانين مكافحة الإرهاب في إسبانية هي من أكثر القوانين تطوراً في العالم ، وأن المحكمة تعترف بأن أموراً غير قانونية ارتُكبت في أثنـاء سـير التحقيقات في هذه القضية ، وأن المحكمة لن تأخذ موضوع التسمع علـى هواتـف هؤلاء الرجال مدة عشرة أعوام قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر على أنها أدلـة قاطعة في تجريمهم لأن ذلك التسمع لم يكن قانونياً ، ولكنها – أي المحكمة – وكما قال : لا تستطيع إلا أن تأخذ تلك المكالمات بعين الاعتبار في حال النطق بالحكم! .

حتى هنا تنفس الجمع الصعداء وظن المتهمون وأهلهم بالمحكمة خـيراً ، إلا أن القاضية التي كُلفت بقراءة الأحكام بددت كل أوهامنا وإيماننا بكل ما يـدعى في هذا العالم دولة الحق والقانون والديمقراطية وحقوق الإنسان ، راحت القاضية تقرأ على مسامع الحضور وكأن على رؤوسهم الطير أحكاماً بالسجن تتراوح بين ستة أعوام مع الغرامة لكمال حديد بتهمة أنه قدم الدعم اللوجستي للمجاهدين لأنـه ساعد زوجة أحدهم على نقل أمتعتها من بيت إلى بيت ، وحتى سبعة وعـشرين عاماً لعماد الدين جركس بتهمة أنه كان يعلم بالترتيب لأحداث الحادي عشر من سبتمبر لأن أحدهم كان قد اتصل به قبل خمسة عشر يوماً من تلك الهجمـات وقال له " أنه دخل في مجال الطيران " ، علماً بأنه لم يشارك فيها ولم يحضر لها ولم يثبت أنه ينتمي إلى هذا الشيء الذي يدعى بالقاعدة !! – كما قالت القاضية – .

وبين هذين المحكومين كان " عبد الرحمن الأرناؤوط " الذي حُكم بالسجن ثمانية أعوام ونصف بتهمة الانتماء إلى تنظيم يدعم تنظيماً إرهابياً ، وما ذلك إلا لأن الرجل من أصل بوسني وكان قد سافر إلى البوسنة أثناء أحداثها الـداميات يستفسر عن أهله وأبناء عمومته ليقدم لهم الدواء وبعض المساعدات .

إلا أن الحكم الذي لا يمكن لأحد أن يبتلعه ولا أن يهضمه كـــان الحكـــم بالسجن سبعة أعوام مع الغرامة على الأستاذ الصحفي " تيسير علون ي" بتهمة ماذا ؟ تهمة " التواطؤ " مع تنظيم إرهابي! .

ستة من هؤلاء المتهمين اضطرت المحكمة إلى إخلاء سبيلهم وتبرئتهم على الفور ، أحدهم كان من صغار النشالين وهو لا يدري كيف اعتقل ولماذا زجّ به في السجن مع هؤلاء المجرمين الإرهابيين العتاة ؟! ، والخمسة الباقون جميعهم من رجال الأعمال السوريين المرموقين وعلى رأسهم " غصوب الأبرش " المتهم بـــ " فضيحة الفيـــديو " الشهير! .

لا بدّ من أن نسجل هنا كذلك أن " يوسف غالان " الوحيـــد الإســـباني الأصل في هذه القضية حكم بتسعة سنوات ونصف بتهمة الانتمـــاء إلى تنظـــيم مسلح والذهاب إلى معسكر للتدريب في إندونيسيا لم يثبت قط وجوده ، وتهمة حيازة أسلحة كان قد ثبت قطعاً أنها ملك لعائلته .

لم نسمع تهليلاً ولا تكبيراً ولا تحدياً للحكم والمحكمة كما اعتدنا أن نـــرى على شاشات الفضائيات في محاكمات من يدعون " بالمقاتلين " ، الناس واجمون والمتهمون مذهولون بهذه العقوبات التي تثبت براءتهم من 99% من التهم الـــتي كانت موجهة إليهم .

بعد قراءة هذه الأحكام في أقل من عشر دقائق صدر الأمر بإخلاء القاعـــة فوراً من الجمهور ، واضطررنا إلى الخروج ونحن لا نعلم هـــل نحـــن في حلـــم ديمقراطي أم في كابوس ديكتاتوري ، هل نحن في أوروبا الاتحادية أم في أدغـــال إفريقية الاستوائية ، هل نحن في القرن الواحد والعشرين أم أن الزمن قد تقهقـــر وهرب منه هذا اليوم من أيام محاكم التفتيش لنرغم على أن نحيا في ظلاله .

خرجنا من قاعة المحكمة لنجد مئات الصحفيين في انتظارنا ليلتقطوا ردود أفعالنا وكل سكنة وحركة ونفس ، صوروا سحنات الألم ودموع المظلومين ، كما صوروا لحظات الفرحة بالفرج في عيون الذين تمت تبرئتهم ، كانت لحظات أليمة قاسية جداً تلك اللحظات ، ما كان الواحد منا يعرف هل يهنئ الناجين أم يعزي المبتلين! .

عدد الصحفيين كان يناهز عدد رجال الأمن في ذلك المكان ، عمليـة تهـريج كبيرة هذه ، لم يكن هناك شيء يستدعي كل هذا الحجم من التواجـد الإعلامـي ولاحتى الأمني ، فهؤلاء رجال ليس لهم إلا الله ، هم لا ينتمون إلى مـا يـسمى " بالقاعدة " ولن يأتي أحد إلى هنا كي يرتكب حماقة ويخرجهم مما هم فيـه ، حـتى الجالية قد تخلت عنهم ، الجالية لا تعرف ولا تعترف الآن إلا بهؤلاء الخمسة الـذين تمت تبرئة ساحتهم ، أما البقية فلم يعد لهم من صديق ولا أخ ولا معـين في هـذه الغربة والكربة ، كل يريد النجاة بنفسه من تهمة الإرهاب ، وهي تهمة كمـرض " الايدز " تنتقل بالعدوى ، بعد هذه المحكمة صار كل شيء ممكناً في إسبانية ، ارتيـاد المسجد إرهابا ، صلاة الفجر تهمة دامغة بانتمائك إلى الإرهاب العـالمي ، شـرب الشاي مع أهل بلدك أو أي بلد عربي آخر وخاصة هذه الأخيرة قد تكـون دلـيلاً قاطعاً على كونك قائد محنك في فن الإرهاب !! ، قراءة مجلة المجتمع ، متابعة قنوات فضائية مخصصة بعينها ، مساعدة إخوانك بنقل أمتعتهم ، نقل شيء من المـال مـن وإلى أهل بلدك وناسك ، كل شيء صار تهمة تتعلق بالإرهاب ، هؤلاء رجال ثبت أنهم ليسوا على علاقة بتنظيم القاعدة – هذا إن ثبت يوماً أن هذا تنظيم له وجـود أصلاً في حياة البشرية!! – رجال ثبت بنص الحكم أنهم ليكونوا يخططون لـضرب شيء من الأهداف على أرض إسبانية ولا أوروبا ، رجال لا ناقة لهم ولا جمـل في شيء مما نُسب إليهم من التّهم ، ولكنهم يحبون الله ورسوله ويغارون على أبناء أمتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، هذه هي تهمتهم الوحيدة ، التعاطف مع أهل البوسـنة والشيشان ودعمهم مادياً ومعنوياً بما يملكون وهو جهد المقلّ الذي يريد نصرة الحق ، شأنه في ذلك شأن الإسبان وكل الأوروبيين من الشرفاء الذين وقفوا وقفات رائعـة في وجه الطغيان في كل من فلسطين والبوسنة والشيشان والعراق .

صدرت الأحكام في محاكمة مدريد إذاً وبعد خمسة أشهر من بداية المحاكمة ، أنا لا أعرف ثلاثة أرباع المتهمين ، لكن الأربعة أو الخمسة أشخاص الذين تجمعنا بهم صـلة الجوار والصداقة والأخوة لا يمكن لي إلا أن أشهد ببراءتهم ، أما البقية ومن خلال قراءتي لحيثيات القضية وملابساتها ومتابعتي الدقيقة لكل ما يجري في الصحافة الإسبانية فيم يتعلق بها ، جعلني أجزم أنها ليست إلا محاكمة لكل عربي مسلم مقيم في مدريد وفي إسبانية ،

محاكمة تحذيرية تأديبية لكل فرد في هذه الجالية تنذر بشر مستطير إن هـــو تعـــاطف بالإحساس أو الكلمة أو الرأي أو تقديم صدقة من ماله إلى من يذبحون في هـــذه الأرض ظلماً واعتداءً ، كما هي تحذير لكل إنسان أوروبي حرّ مارق من التنـــويم المغناطيـــسي الجماعي الذي تمارسه وسائل الإعلام الاوروبية فيم يتعلق بالقضايا العربية والإســـلامية ، سواء اعتنق الإسلام أم لم يعتنقه ، تحذير شديد أن يبقى بعيداً عن الإسلام والمسلمين ، أن لا يختلط بهم ، أن لا يتعاطف مع قضاياهم ، فهم الأعداء ولا ينبغي على أي إسباني أن يضطلع بهذه القضايا وإلا لكانت نهايته كنهاية "غالان" المسلم الإسباني .

❋❋❋

" تيسير علوني " كان لبّ القضية ونجمها ، الهدف الوحيـــد الكـــامن وراء إدانته ومحاكمته واعتقاله هو اعتقال واغتيال الصحافة القومية الإسلامية ، بهـــذا الترتيب ، لأن تحالف هاتين الكلمتين اليوم أصبح أمراً في غاية الخطورة ولا أحد من عرب أو عجم يرغب في صحافة قومية تنافح عن الإسلام ولا في صـــحافة إسلامية تحترم المشاعر القومية في المنطقة العربية ، هذا تحالف خطير ولذلك فـــإن تهمة العلوني خطيرة وخطيرة جدا .

من الآن فصاعداً أصبح على كل صحفي عربي حرّ مستقل أن ينتظر شيئاً مشابها لما حدث للعلوني ، الصحفي العربي المسلم المظلوم شأنه في ذلك شأن كل من كـــان معه في تلك المحكمة ، ولكن الحكم على علوني كان أكثر ظلماً واستبداداً لأنه حكم على قناة الجزيرة وأمثالها من منابر إعلامية عربية تحاول أن تشق لنفسها طريقاً في هذا العالم الذي يتهافت علينا يريد أن يمنعنا من أن يكون لنا صوت أو كلمة أو صورة .

محاكمة العلوني كانت محاكمة للأمة لأنها من خلال العلوني وأمثاله تحدت سلطة وسطوة الإعلام الغربي ، أرادت أن تخترق الحواجز على العقول والعيون ، إنها محاكمة لكل القنوات العربية التي تريد أن تقدم للمشاهد العربي والعالمي شيئاً غـــير الـــرقص والطبل ، إنها محاكمة للضمير العربي الذي استيقظ ليعرف موقعه على هامش الانتفاضة في زمن صحوة تبحث عن نقطة ارتكاز لن تجدها إلا في هذا التحالف بين الإسلاميين والقوميين ، والذي جسده العلوني بأعلى رتبه من خلال عمله الصحفي المهني .

محاكمة العلوني كانت في واقع الأمر محاكمة لكل قلم عربي تسول له نفسه أن يعترض أو يفكر أو يشرح أو يبين حقيقة ما يجري في عالمنا اليوم .. وكل قلم عربي حرّ مستقل اليوم سوف يعتبر مذنباً حتى تثبت براءته في قوانين الغـــاب ، وقـــوى الإرهاب العولمي المهيمن على البشرية ، نحن مذنبون جميعاً ، تُهمنا جاهزة ، قاعات محاكمتنا أعدت بعناية فائقة ، هواتفنا مخترقة ، في بيوتنا رُكبت أجهزة للتنـــصت وكاميرات خفية ، تعدّ لنا يوماً فيوماً ملفات صفحاتها تعدّ بالآلاف تثبـــت أننـــا مذنبون ، لأن لنا أمة ننتمي إليها ولا ننساها على الرغم من هذه الغربة التي فرضها أهلنا وأهلها علينا ، مذنبون لأننا ندافع عن فلسطين وعن كل مظلـــوم في هـــذه الأرض حتى لو كان أمريكياً شرده إعصار وضيعه رئيس حكومة الحرب في بلاده المشغول بغزو الآخرين إلى درجة الانشغال الكامل حتى عن حقوق مواطنيه .. نحن مذنبون لأننا بشر نحس كالبشر ونريد أن نعيش كالبشر ونريد أن نرفع رؤوســـنا بكرامة البشر ، نحن مذنبون حتى تثبت براءتنا ، ويومها سيكون عقابنا بالـــسجن والغرامة والتشهير ونشر صورنا وعناوين منازلنا ومكان وتاريخ ولادتنا في مختلف وسائل الصحافة المرئية والمقروءة والمسموعة حتى لا يشتبه أمرنا في ظل الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان على أحد !!، كيف لا وقد ثبت أننا أبرياء ؟! .. ولا بد من معاقبتنا بسبب هذه الجريمة ، فهي وحدها في عرف القوم جريمة وأي جريمة .

إنهم يريدون للعالم أن يبقى مغمض العينين يخوض في الشهوات الهابطة ، إنهم يريدون أن تبقى الصحافة في العالم عمياء حمقاء بلهاء كما هو الحـــال عليـــه في الصحافة الإسبانية اليوم التي خرجت تستنكر هذا التخفيض الكـــبير في أعـــوام الأحكام بالسجن ، وقالت عن رجل مثل غصوب الأبرش المظلـــوم في قـــضية الفيديو : أن القاضي ترك لنا في الشارع مجرماً إرهابياً خطيراً وبرأه مـــن التـــهم الموجهة إليه !! .. إنها ملابسات القضاء الإسباني الذي كان في واقع الأمر نزيها إلى أبعد الحدود عندما أمر بسجن تسعة عشر بريئاً بأحكام استمدها من ضـــغط القوى العالمية عليه إضافة إلى استبداد الصحافة به إلى درجة إجـــراء محاكمـــات موازية يوماً فيوماً منذ بدء هذه المحكمة التهريجية ، التي كان علـــى القـــضاة أن يختاروا فيها بين رقابهم ورقاب المتهمين!! .